مُقدّمة

للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

صاحب هذا الديوان شاعرٌ له ذوقٌ واعٍ ، يُسعده شعورٌ وفهمٌ واطلاع .

وبحق كان يقول — يوم ألمّ به عارضٌ من عوارض الداء أشفق أن يكون ختام الحياة — إنه لم يأسَ على شيءٍ أساه على كنوز الفن والجمال التى فاته أن يستمتع بها وهو مشغول بمطالب الوظيفة . فلم تكن خواطر الموت تفزعه ؛ كما قال : « وإنما كان يحزّ فى نفسى أن أموت قبل أن أشفى غلتى من القراءة ؛ إن خزائن كتبى زاخرة بعشرات المئات من المؤلفات المختارة فى أكثر من لغة ، ولم تترك لى الوظيفة فسحةً من الوقت لدراسة الجزء الأكبر منها . . »

هذا هو الفردوس المفقود بما فاته من ذخائره وكنوزه ، والموجود بما ملك من مفتاحه فى يديه ومن متعته فى قرارة وجدانه . ومن كان له ذوقٌ واعٍ كذوق الشاعر ، وفهمٌ مستطلعٌ مطّلع كفهمه ، فهو فى متعة لا يحسها إلاّ أصحاب الفراديس المنشودة ، موجودةً كانت أو مفقودة ، وفى نعمة كنعمة الجنّة التى عرضُها الأرض والسماوات ، لأن للذوق زاداً لا ينفد ، حيث توجد أرضٌ وسماء .

نعم ، هو فى متعة فردوسية حين يأخذ من تلك الأزواد ما يشاء .

ولكنه فى عناء حين يُعطى أو يهمّ بالإعطاء .

فى عناء من ذوقه ووعيه ، لأنه لا يستطيع أن يعطى شيئًا لا يرضى عنه كل الرضى ، فهو إذا أخذ من الفردوس المبسوط أمام عينيه استطاع أن يدع منه كل ما لا يرتضيه ، وأغناه أن يأخذ منه النُّخَب المختارة كما يشاء حين يشاء ، وبحسبه أن يرى ألفَ ألفٍ ، ثم ينتقى منها العشرةَ أو العشرين ، وبحسبه أن يضفى على

هذه العشرة أو العشرين كلَّ الثروة التى يحتويها فى قرارة وجدانه ، لأنها ثروة الاستحسان التى يغنيها استحسان العشرات ، بل الآحاد ، عن حسن الألوف .

لكنه يعطى أو يهمّ بالإعطاء ، فيُحضر فى ذهنه كلَّ ما يرتضيه ذوقُه وكلَّ ما يأباه ، ويسبق الأعينَ الناقدة بما يراه كما يحس أنها ستراه ، فيأبى عليه وسواسُ الحسن أن يفارقه عملٌ من أعماله غيرَ مرضى عنه فى نظره ، كيفما نظر إليه نقادُ الغيب المجهولون .

وقد بدأ الأستاذ عبد الرحمن نشأته الأدبية — قبل نيف وثلاثين سنة — بهذا الوسواس الناقد ، لأنه بدأها بأقوى ما يكون الذوقُ الواعى من التطلع إلى الكمال ، وناهيك بتطلع الأمل وتطلع الشباب . فكانت قدرته — قدرة الطبع والاطلاع — تواتيه على إنجاز المقال أو القصيد فى ساعات معدودات ثم تنقضى الأيام وهو يفرغ منه ليعود إليه ، وهو يعيده ليبدأه من جديد ، ثم هو يأبى عليه أن يفارق قلمَه ليستقبل العالم القارئَ إلا وهو ملتى اليدين ، كأنه مكتوف لا يطيق أن يرده عن سبيله إلى عالم الحياة .

وعرفت يومئذ ما يعانيه من رقابة نفسه على نفسه ، فكشفت له عن تجربة من تجاربى الأولى فى مثل هذا الموقف : إذا كتبتَ فقدّرْ أنك تكتبها مسودة ، وقدّرْ أنك تنشرها بغير توقيع ، وأحسبُ أنك تستغنى بذلك عن كثير من المراجعة وتستريح بذلك من كثير من الوسواس .

ولكنها حيلة قد أغناه عنها خبرةُ الأستاذية الصَّناع : تلك الخبرة التى تجمع الجهود المتفرقة فى جهد واحد ، ثم لا نلغيها أو تبطل واحدةً منها فى تفصيلاتها ، كأنها الإجمال الموجز بعد التفصيل المطيل .

تلك هى الخبرة التى يطمئن إليها السائقُ القدير ، فيعمل كل ما يعمله السائق المبتدئ خطوةً خطوة ، وحركةً حركة ، ونظرةً نظرة ، ملتفتًا إلى كل لفتة فى الطريق ، متحذّراً من كل ما يدعو إلى الحذر فى مكانه ، ولكنك تستمع إليه وهو يحدثك ويستجيب لحديثك ، فيخيل إليك أنه لا يبالى ولا ينظر ولا يفرق بين

الخطر والسلامة ، وإنما هو فى الحقيقة معنى الخبرة فى كلمتين : التفاتٌ بلا التفات ، أو مبالاةٌ بغير مبالاة !

فالخبرة الصَّناع هى آيةُ هذا الديوان الحافل بمتعة الذوق الواعى والعاطفة المهذبة ومتعةِ المعنى الفَطِن والكلمة المنتقاة ، ومتعةِ الطبع المبتكر والاطلاع المهضوم . ومن لم يُرزق مثلَ هذه الخبرة فى قالةِ الشعر فخطبُه هيِّنٌ ورسالتهُ سهلة ميسرة : ذوقٌ يُرضيه ولا عليه من العاطفة والمعنى ، أو عبارةٌ ينمقها وحسبُه منها النغمةُ والطلاء ، أو ابتكارٌ ولا فهمٌ ، أو اقتباسٌ ولا ابتكار . . وليست كذلك رسالةُ الشاعر الذى يَرْصُد له ذوقُه الواعى وفهمُه المطبوع وشعورُه بما يعبر عنه وما شعر به المعبرون من قبله ، فإنه رَصدٌ لا يوكل به شيطانٌ واحدٌ من شياطين الشعر ، ولا عروسٌ واحدة من عرائس الفنون ، ولا يُقدَر على مرضاتهم جميعًا بغير تلك الخبرة التى تبالى ولا تبالى ، وتترك الشيطانَ الذى بقى بعد القسمة العادلة كأنه رضى بعض الرضى ولم ينل من الغنيمة كل رضاه ، وهو قانع بغاية الإمكان ، وأنه ليس فى الإمكان أعدل مما كان .

ولست أسأل الأستاذ عبد الرحمن ، ولكننى أسأل نفسى بعد ما عرفتُ من مذهبه فى الشعر والنقد ، وقرأتُ من شعره ومن نقده لكلامه وكلام غيره : أىّ شياطين الشعر أحب إليه أن يُرضيه ويصلح ما بينه وبينه إذا وجب أن يرضى شيطانٌ ، وأن يسخط دونه شيطانٌ أو شياطين ؟

وأقول بغير تردد : إنه هو شيطانُ الذوق اللمَّاح غير مدافَع ، وإنه هو الشيطان الذى يلمح مساربَ الفطنة الخفية بين المعانى والألفاظ ، ولا ينتظر عليها حتى تُقبض باليدين وتمتلئ بالشعاع الثاقب من كلتا العينين .

فهذه الفطنة الخفية هى الصوفية الفنية التى انتهت إليها عبادة الجمال ورياضة القلب على جوار قريب من رياضة الروح .

وفى سبيل هذه « الصوفية الفنية » يقدّم الشاعر قرابينه على المذبح الخالد إذا وجب القربان على حساب كلمة أو قافية ، أو على حساب فكرة أو عاطفة ، ولكن الحساب الذى لا يمسه قيدَ شعرة ولا مقدارَ ذرة هو حساب الجمال الملموح

فى محراب تلك الصوفية الفنية ، فلا هوادة هنا ولا نقص ولا زيادة ، فى مراسم هذه التقوى وشعائر هذه العبادة .

وبهذه الصوفية الفنية تقاس المقاييس جميعًا فى صفحات هذا الديوان على اختلاف موضوعاته ومناسباته ، فإنها هى هى مقياس العواطف والأخلاق ، ومقياس العواطف والأذواق ، وليس قصاراها من الشعر أنها مقياس الجمال فى خواطر وكلمات .

فالصوفية الفنية هى وسيلته الخفية إلى إدراك ذلك المعنى الذى يقول عنه فى قصيدة « المليكة المملوكة » :

معنًى وراء الحس قد أدركتُه ... وحدى ، فلم أطلب ثمارَ غصونك
للسيد المحظوظِ دَنُّك كلـه ... ما دمتُ سكرانًا بخمر عيونك
والخمر روح الدَنّ تُسكر دونَه ... فإذا سكرتُ فقد سكرتُ بدونك

والصوفية الفنية هى التى تتلقى الحبّ أنواعًا ، فتخلص منه برحيق كرحيق النحلة من شتى الأزهار ومختلف الرياض :

فتـاتى أحبك حبَّ الأبِ ... وحبَّ الصديق بـلا مأربِ
كذاك أحبك حـبَّ الرجا ... ل ، ولـكنَّه ليس بالقُلَّب
عواطفُ شتـّان ما بينهـا ... فإن أخفِ واحدةً أكذب
تَوحـَّد ما بينهـا فى هـوا ... ك ، ولا شىءَ فيه بمستغرَب
ففيك أنوثـةُ كلّ الإنـا ... ثِ ، وفيك براءةُ كل صـبى

والصوفية الفنية هى التى تحيي الأثر الخالد فى الصحراء — أثر أبى الهول — ليرى بعينيه القمرَ الطالع كما يرى الشاعر جمال الحياة :

هناك أرنو جزافًا للجمال كما ... يرنو أبو الهول فى الصحراء للقمر

وبهذه الصوفية يرى الشاعر طيف السيد المسيح فى صورته الفنية كما ألمّ

بخياله فى رؤياه ، وهو هو الشاعر المسلم الذى يؤمن بأنه — عليه السلام — لم يمت مصلوبًا ولم يزل فى الخالدين روحًا من روح الله :

عُدْتَنى حاملاً جروحَ يسوعٍ كى تعزِّى تلك الجروحُ جروحى
فعليك السلامُ من عربىٍّ مسلم القلب والحجى والروح

والصوفية الفنية هى التى تكسو الترابَ جمالها وتُضفى على الحجر صفاءها ، بما يفيضه القمر من نور لا وهج فيه ، ومن عالم كأنه عالم الأشباح والأطياف :

تفيض فى الكون نوراً غير ذى وهج فيلطف الكونُ حتى التربُ والحجرُ
تجلو الخليقةَ فى القمراء شاحبةً كأن عالمنَا الأشباحُ والصورُ
كأنّ عالمنا ولّى وأعقبه عوالمٌ قد حوتنا غيرَه ، أُخَرُ

والعاطفة فى صورتها الفنية التى لم تنقطع ولم تنمح هى دليلُ الوفاء للحبيبة الأولى بقلبٍ غيرِ سالٍ ونفسٍ تستجيب لنداء الجمال فى عالم من الحقيقة كعالم الخيال :

لقد وحدّتُ فى حبى زمانًا فلم يَرُق الردى حبى المثالى
فإن أمَلتُ فى دنياى حبًّا فذلك أن قلبى غيرُ سال
كعينِ الماء فى الصحراء غاضت وأخلف ريَّها رقراقُ آل

والنغم الطروب هو الذى يمهد للحب الروحانى سبيله إلى هذه الحياة الدنيا كما تتمهد خُطَى الأرواح على تهليل النشيد :

وَحْىَ القريض تكلمْ حىِّ الهوى وترنَّمْ
نصرٌ ولا كل نصرٍ حصنُ العزوبة سلَّم
ما كان ذاك اختياراً بل ذاك أمرٌ محتّم
إن قيل لاقى انهزامًا فالنصرُ من حيث نُهزَم
هو انتصارُ حياة بتراء من غير توأم

هـــو انتصـــار الذرارى من كل أروعَ أكرم
قـــد كان فى النسل عُذرى فمـــا اعتـــذارى إذا لم ...؟

وهذه النغمة الغنائيةالطيِّعة فى أناشيد هذه الصوفية الفنية هى آية القدرة التى راض بها الشاعر ما لا يُراض فى شعر الغناء من دقائق المعنى العصىّ ، وسوانح الفكر الخفى ، ومذاهب القول التى يباح من أجلها للشاعر أن يَرضى أسلوبَ الحكيم ولا يأسَى على السهل الممتنع من أسلوب التطريب والتنغيم ، ولكن شاعرنا الذواقة يهتدى فى معزفه إلى الوتر الوحيد الذى تلتقى عنده بصيرةُ الحكيم فى سبحات الفكر ، ورقصةُ الدرويش الحائم فى سبحات الروح ، وذلك هو وتر « الصوفى » بين عبادة الصدق وعبادة الجمال .

وفى الحق أن شاعرنا الذواقة هو خير من يَمتحن فنَّ الشعر العربى فى مزيته الكبرى ، وهى مزية « السليقة الغنائية » التى سلمها له أصحابُ الدعاوى الفنية منذ مولده على نغمات الحداء ، ثم عادوا يكابرونه فيها كلما وازنوا بينه وبين فنون العرائس من ربات الملاحم ، أو ربات المسارح ، أو ربات الحكمة والبيان ، على اختلاف الأوزان ، أو بلا أوزان . فإن عروضنا العربية لتتسع لكل نغمة من أنغام الشعر إذا هى اتسعت على شرط شاعرنا الذواقة لخوالج النفس ، وخواطر الذهن ، ولطائف الذوق ، وخفايا الوعى ، وضوابط اللفظ ، ومحاسن المعنى ، وسائر تلك المقومات الجمالية التى يتحراها شاعرنا ، ويأبى التفريط فى حسنة منها لحساب غيرها من حسنات البلاغة فى مضامينها أو فى تعبيراتها ، بل لعله يؤثر السكوت على أن يُخلى شِعرَه من إحداها أو منها جميعًا على أحسن ما يرتضيها الشاعرُ فى جملتها . وقد حمَّل الشاعر أوزاننا فى هذا الديوان نغماتِ (الباليه) الراقصة فحمَلتها وخَفَّتْ بها على أطراف أصابعها . فإذا حسبنا ثروةَ الشعر العربى بما زيد عليها من نفائس هذا الديوان ، فلنحسب بينها أنه آيةٌ من أصدق الآيات على أن الشعر العربى حداءٌ خالدٌ ، لأنه يؤدى رسالةَ الحداء على أجملها فى قوافل هذا القرن العشرين .

عباس محمود العقاد